

الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي (ت440هـ/

1048م): مؤسس نظام دولة لا يزول بزوال الرجال

الزرويل صالح

جامعة غرداية

Salah.zerouil@univ-ghardaia.dz

تاريخ الإرسال: 05 /07 /2021 ؛ تاريخ القبول: 01 /10 /2022

Sheikh Abu Abd Allah Muhammad bin Bakr Al-Farastai(at 440AH/1048AD): The Founder of a state system that does not disappear with the demise of mens

Abstract:

The research includes some aspects of the life Sheikh Abu Abdallah of his doctrine and his Libyan region nafoussa

The founder of the Azzaba system in biled el maghreb which has remained effective until today and valid in all times and places.

The system translator settles down from his place of birth then he took all the sciences by great scientists who lived the same period such as: Cheikh Abu Nouh Said Ibn Zanguil au Hamma de la Tunisie, et le Cheikh Abu Zakaria Ibn Abi Messouar El yarassini de Djerba, put again the mental science of Djamia El Kairaouane de Abu Zakaria.

He was a traveler whose purpose was to publish knowledge. from Nafoussa to Kastilia of Djerid towards Kennouma and Tekyous. and to Righ and Ouargla and M'zab. His character wisdom and prudence from his point of view. among his collections which were gathered by his apprentices

"Kitab Attouhaf El Makhzouna", he is died in the year 440/1048.

Keywords: Biography; History; Nafusa; Abu Abdallah Al-Farstai; 5th century AH/11 AD.

الملخص:

يتناول المقال بعضاً من جوانب حياة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرستائي الإباضي مذهباً، النفوسي موطناً، واضع ومؤسس نظام العزابة في بلاد المغرب، ذلك النظام الذي لا يزال باقياً رغم مرور حوالي عشر قرون عليه، وهو صالح لكل زمان ومكان في الحل والترحال، يجمع بين السياسة والمجتمع والاقتصاد والتعليم وغيرها من المجالات.

الناصرية الناصرية

نشأ الشيخ أبو عبد الله بفرسطاء بجبل نفوسة (ليبيا)، وأخذ علومه عن مشايخ عصره فيها، كما زاول دراسته في الحامة وجربة والقيروان، فقد كان رحالة في طلب العلم ونشره، إذ انتقل بجلقة علمه من نفوسة إلى قسطالية بالجريد، وكنومة وتقيوس، ثم إلى أريغ ووغلانة وآجلو (حيث أسس نظام العزابة) ثم إلى ورجلان ومزاب، وكان موهوباً بالحكمة والرشد وحصافة الرأي وسداد التفكير وحسن التقدير، له في كل فن تأليف كثيرة، جمعها تلاميذه. توفاه الأجل بأجلو سنة 440هـ/1048م.

رغم شظف العيش والمسيرة التعليمية الشاقة والظروف السياسية العصيبة التي عاشها الشيخ أبو عبد الله محمد الفرستائي إلا أنه

استطاع أن يترك بصمته للإباضية من بعده، ويؤسس نظاما يحفظ المذهب والمجتمع؛ سواء كان حرا أو تحت حكم أية دولة.

الكلمات المفتاحية: السيرة؛ التاريخ؛ نفوسة؛ أبو عبد الله محمد

الفرسطائي؛ القرن 5 هـ/ 11 م.

مقدمة:

عرف بلاد المغرب عموما ظهور مشايخ وعلماء على مر العصور، حملوا على عاتقهم مسؤولية مجتمعاتهم، في الجانب الديني والاجتماعي والثقافي والعلمي، ولقد كان شيوخ الإباضية ممن تركوا بصمتهم سياسيا واجتماعيا وعلميا، إذ انتشر المذهب الإباضي مع بداية القرن الثاني الهجري، الثامن للميلاد، وعرف انتشارا واسعا في أرجائه، واستطاعوا تأسيس أول دولة إسلامية، وعاصمتها تيهرت، شهد لها بالتعايش والتسامح ليس فقط بين رعاياها من مختلف المذاهب وإنما حتى من أهل الذمة الذين عاشوا تحت كنفها، وبعد سقوطها تعرض الإباضية لشتى أنواع محاولات محو هويتهم الدينية بالدرجة الأولى، لكن استطاع الشيخ أبو عبد الله الفرسطائي وضع أسس نظام يحفظ المذهب من الزوال، والمجتمع من الاندثار.

فمن هو الشيخ أبو عبد الله محمد الفرسطائي؟ وما هي مراحل

حياته، وكيف استطاع تأسيس نظام العزابة رغم الإرهاصات المحيطة

به.

1. محمد بين أحضان عائلته:

هو أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي، ولد بمدينة فرسطاء (أنظر التعليق رقم 01) الواقعة على ربوة مرتفعة فوق قمة شاخنة من قمم جبل نفوسة، شرق مدينة كاباو من مديرية الحراة التابعة لمصرفية لالوت (ليبيا) سنة 345هـ/956م (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 8)، وأبوه الشيخ بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي من الطبقة الثامنة (350-400هـ/961-1009م) شيخ عالم وفقه حكيم من أريغ (أنظر التعليق رقم 02)، وأصله من فرسطاء، فهو إذن سليل أسرة علماء ومشايخ. يقول الشماخي: ﴿ودارهم معدن العلم قديما من أبيه وجده وجد جده علي ما أظن﴾ (الشماخي، 2009: 368)، ولاشك أنه من عائلة أمازيغية أبا عن جد، وهذا ما لم تتعرض لذكره المصادر وكأنه مسلم به، إذ أن سكان الجبل غالبيتهم العظمى كانوا على اللسان البربري، حيث أن الجبل سكنته قبائل أمازيغية عدة، كيف لا وقد قصد القيروان للتمكن من اللغة العربية وآدابها فيما بعد.

لم تتعرض المصادر إلى ذكر تفاصيل حياته في صباه أو شبابه خاصة في الجبل، وهي السمة الغالبة عليها، فهي تهتم أكثر بذكر أعماله دون ذكر تفاصيل ومراحل حياته، وكل ما هنالك في من معلومات في المراجع لا تعدو إلا أن تكون احتمالات نظرا للزمن الذي عاش فيه والحياة العامة واليومية السائدة وقتذاك، فقد عاش محمد بن بكر بجبل نفوسة فترة من الزمن، وكانت زوجته عائشة من بني ينجاسن، لرواية مذكورة عند أبي زكرياء إذ ذكر ابن يعقوب السيتي: فسألت عائشة زوجة الشيخ...»

(الورجلاني، 1981: 268)، وكانت سنده في حله وترحاله، كيف لا وهي تقوم بشؤونه وشؤون أبنائه أثناء فترات غيابه للدعوة في مختلف الربوع، وله من الأبناء أبو يعقوب يوسف...، وأبو العباس أحمد بن محمد صاحب التأليف (الوسيان، 2009: 822/2)، وإبراهيم بن محمد (انظر التعليق رقم 03)، أما حفيده فهو أبو نوح يوسف (أسماوي صالح، 1987: 25). وقد كف بصره في كبره، وذلك من حادثتين مذكورتين في كتب السير (الورجلاني، 1981: 325/2، الوسيان، 2009: 826/2).

2. محمد في حلق العلم:

لا تسعفنا المصادر بذكر مراحل سني دراسة أبي عبد الله، ولم تضبط سنوات تنقلاته من أجل طلب العلم، وإن كانت تتفق في المدن والقرى التي زارها وجلس بين يدي مشايخها، فبداية يكون قد أخذ عن أبيه ومن معه من مشايخ جبل نفوسة (الجعيري فرحات، 2010: 131)، ولا شك أن الفتى دخل المدرسة القرآنية في طفولته شأنه شأن أبناء المسلمين في العالم الإسلامي الزاخر بالكتاتيب (أسماوي صالح، 1987: 22)، ولما ملأ وطابه من علوم الدين فيها، وتمكن من حقائق المعرفة، رغب إلى المزيد لا في العلوم النظرية فإن معين العلوم النظرية في الجبل في ذلك الحين كان لا ينضب، ولكنه رغب أن يدرس بالإضافة إلى العلوم النظرية علوم الاجتماع بالتجربة والملاحظة (الجعيري فرحات، 2010: 132).

سافر من فرسطاء إلى جزيرة جربة التي دخلها حوالي سنة 370هـ/980م، ودرس فيها على يد الشيخ أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني في الجامع الكبير أو جامع أبي مسور بحومة الحشّان (الجبيري فرحات، 1975: 31، كوردي حسين، 2008: 90)، حيث أخذ عنه علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير، وتسكت المصادر عن مدة إقامته فيها (معمري يحيى، 2008: 128)، وتختلف أيضا في ضبط خط سير تعلمه بعد خروجه من الجزيرة، ويفصل في ذلك على الأرجح أبو العباس الدرجيني في طبقاته إذ يقول: ﴿وبلغنا أنه في أيام قراءته على أبي زكرياء.... فبلغنا أنه لما مات أبو نوح... وحصل من العلوم خيرا كثيرا، إلا أن بضاعته من علم اللسان كانت مزجاة، لم ير أن يتعاطى من العلوم حتى يحصل الكفاية من علم الفصاحة فقصد مدينة القيروان، وأقام بها مدة يتعلم اللغة والنحو، حتى اكتفى من علم الفصاحة فصدر عن القيروان، وبعد ذلك دارت عليه الحلقة﴾ (الدرجيني، 2007: 169/1)، ويضيف أبو زكرياء الوردجاني والدرجيني أنه ذهب إلى الحامة (أنظر التعليق رقم 04) ثم القيروان، ونرجح ذلك، لأنه إثر رجوعه منها قعد للتدريس.

أما في الحامة فقد درس الأصول على الشيخ أبي نوح سعيد بن زنفيل ولم يغادرها إلا بعد موت هذا الأخير، الذي توسم فيه النبوغ والعلم لقوله: ﴿إن كنت أفهم شيئا، فإن هذا الفتى هو الذي يحيي دين الله...﴾ (الوردجاني، 1981: 251/1. الشماخي، 1995: 368)، وأما في

القيروان فقد درس علوم العربية والمنطق، وأخذ العلم عن عدد من أعلامها (أنظر التعليق رقم 05)، وكانت عامرة بعلماء الاباضية، ولم تذكر المصادر الشيوخ الذين درس عنهم. قال أبو الربيع: ﴿إن أبا عبد الله محمدا توجه من عند أبي زكرياء إلى القيروان يتعلم الإعراب والنحو﴾ (الوسيان، 2009: 359/1. الجعيري، 1975: 32)، ونرجح أنه كان ينتقل بين عدة حلق ولم يقتصر على اللغة، وهو ما ذهب إليه الشيخ سالم بن يعقوب إذ يقول بعد سرد لأدلته من المصادر: ﴿وأنا أميل إلى أن تعلمه على أبي نوح بعد تعلمه في جربة وقبل القيروان... فتاريخ 413هـ/1022م، تاريخ الرجوع الإمام أبي عبد الله محمد بن بكر من القيروان بعد إتمام دراسته فيها بعد ما حصل على العلوم العقلية والنقلية في نفوسة والقيروان﴾ (بابا حمو إبراهيم، 2003: 308)، وتاريخ إنشاء مدرسته بمدينة تقيوس (أنظر التعليق رقم 06) وفيها انتقل بمدرسته من تقيوس إلى أريخ عند قبيلة مغراوة (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 43-44).

ثم انتقل من القيروان إلى قصطيلية (أنظر التعليق رقم 07) يبحث عن الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء المزاتي ليتعلم عنه علم الفقه والفروع (الورجلاني، 1981: 253/1)، وتزامن قدوم الشيخ أبي عبد الله إلى تقيوس مع الذين أرسلهم الشيخ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور وهم ابنه زكرياء ويونس مع ابن أخته أبا بكر بن يحيى وغيرهم ممن خرج معهم إلى الشيخ أبي عبد الله وقال لهم: ﴿امضوا إلى ذلك الرجل

فإن انتم وجدتموه فكونوا معه ولو شغل دنياه ﴿ (الورجلاني، 1981: 253/1)، يقول زكرياء بن أبي زكرياء فصيل: فلما وصلنا إلى تقيوس التقينا مع الشيخ أبي عبد الله، كما جاء من القيروان... يريد المسير إلى أبي عمران موسى بن زكرياء بتجديث ﴿، ثم إنهم كلّموا الشيخ أبا عبد الله أن يعقد لهم حلقة فأبى من ذلك وامتنع، ومكثوا يراودونه ما شاء الله.... ﴿ (الورجلاني، 1981: 254/1)، وسبب إجابته لمطلبهم بعد ذلك مفصل في المصادر، من هذه النصوص نستنتج مدى اهتمام الشيخ أبي عبد الله بالعلم وتحصيله، وقد يكون دافعا ذاتيا، أكثر منه أبويا، فنجدته ينتقل من الجبل إلى الجزيرة، ثم إلى إفريقية بحثا عن مصادر العلم آنذاك، وواضح أن حلق العلم كانت منتشرة في الربوع، تحت رعاية وتوجيه كبار مشايخ الإباضية، وما قام به لا يعدو إلا أن يكون مسارا طبيعيا لتحصيل العلوم المختلفة، مثله مثل أي طالب علم راغب في ذلك.

3. الشيخ أبو عبد الله ومصدر رزقه:

اعتمد الشيخ أبو عبد الله على نفسه في توفير مصدر قوته، فلم يشغله العمل العلمي والاجتماعي عن السعي لكسب الرزق، وكان ذا غنم كثير ترعاه له رعاة، حيث لم يكن ليتفرغ لرعيها والقيام بشؤونها فاتخذ لذلك عُمَلا ورعاة، إذ ذكر الورجلاني في سيره بعض ما يدل على ذلك: ﴿ وكانت غنمه في البراري... فلما قدموا عليه رعاة غنمه... ﴿، و... كان له عمال يعملون... ﴿ (الورجلاني، 1981: 262/1)، فضلا عن

أراضي زراعية يملكها، لا يمكننا معرفة عددها، ولا مكانها ولا حتى مساحتها، إلا ما ذكر في المصادر، إذ ﴿ كانت له ضيعة في تينسلي ﴾ (أنظر التعليق رقم 08)، وفي موضع آخر: ﴿ نزل الجراد على ضيعة الشيخ بتين يسلي... ﴾ (الورجلاني، 1981: 325/2)، وقصده رجل من لمطة وتاب على يديه... وأرسله في غنمه بجبال بني مصعب (الشماخي، 2009: 366/2)، ﴿ إذ أصبحت له ضيعة أراد أهل أريغ أن يعيروه بها عندما أتوه إلى وارجلان يطلبون منه العودة ﴾، كما كان يمتلك ضيعات كثيرة منها ما أشار إليه الوساني بقوله: ﴿ إن بني ورتيزلن غرسوا له خمسمائة فسيلة... ﴾. وبتحسن حالة أبي عبد الله المادية، أصبح يستضيف العزابة والطلبة عنده (الجعيري فرحات، 1975: 37).

يمكن القول بأنه كان ميسور الحال في البداية، قد يكون للمستوى المعيشي الذي تعيشه عائلته، لكنه تحسن بعد أن تملك عدة ضيعات وأصبح يعين عليها عمالا له لرعي أغنامه والقيام بشؤون أراضيه الزراعية، والتي صارت مركز تجمع للعزابة الذين يفدون إليه من كل حذب وصوب، في تينسلي وأريغ ومزاب.

عاش الشيخ أبو عبد الله البساطة والكفاف من عرق جبينه، تأسيا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان راعيا للغنم، ثم معلما. وعلى نهجه دأب مشايخ الإباضية في القديم والحديث، لا يطلبون جاها ولا سلطانا.

4. الشيخ أبو عبد الله الرحالة:

عُرف بين العامة باسم: سيدي محمد السائح (كوردي حسين، 2008: 93)، وذلك لكثرة تنقلاته وأسفاره في شتى ربوع الإباضية من جبل نفوسة شرقا إلى جبال بني مزاب غربا ومن القيروان شمالا إلى وارجلان جنوبا، وهو من العلماء الذين ذاع صيتهم في الآفاق، توطن إفريقية وقسم أوقاته وأيامه بين بلاد الصحراء لهداية الناس وإرشادهم (بابا محو إبراهيم، 2003: 307)، وقد كثرت تنقلاته الدعوية لنشر نظام العزابة بين أوساط الإباضية، وما أكثر التزاور بينهم رغم تباعد الديار وسوء الطريق والأحوال (الجعيري فرحات، 2010: 131)، نذكر بعضا من أشهر المدن والقرى التي كانت عامرة بهم دون التعرض لأسباب رحيله منها، أو مدة بقاءه فيها ودون ترتيب، كما ذكرها الشيخ فرحات الجعيري في كتابه، من أجل الوقوف على الاهتمام البالغ منه في الحفاظ على استمرارية المذهب ونشر سيرة الحلقة بين الربوع: فمن تينسلي إلى وارجلان بقراها العديدة مثل: إفران ثم جبال بني مضعب، ومنها أيضا تين باماطوس (في الطريق بين وارجلان واريغ) ووغلانة وقنطرة في قصطيلية، وتلاعيسى (وارجلان) وسدراتة. ثم إلى إفريقية (باجة) والقيروان، والساحل وجربة وسوف وطرابلس وجبل دمر، ونفوسة، ومولست (جبال بني خداس) ولماية، وتافجلت (شمال مدين)، وجبال بني مزاب ثم أريغ (الجعيري فرحات، 2010: 132)، تلك إذن القرى والمواطن التي كان يتردد عليها هو ومن معه من المشايخ وطلبة العلم

للإفادة والاستفادة والزيارة وتفقد أحوال إخوانهم، والوقوف إلى جانبهم في السراء والضراء.

كانت رحلته الأخيرة من قلعة درجين سنة 440هـ/1048م، إلى أسوف ثم أجلو مع قبيلة ورتيزلن أمام هجمات الصنهاجيين، وكانت تلك في آخر أيامه (سليمان بوعصبانة عمر، 2013: 119).

وكان الشيخ يشتي في أريغ ويربّع في البوادي عند بني مصعب (مزاب) وغيرهم، وكانوا آنذاك أصلية فرد بعضهم إلى الوهبة (الدرجيني، 2007: 185/1)، وقد لعب دورا كبيرا في... اهتداء قبيلة بني مصعب البربرية التي كانت مقيمة في أرض مزاب الحالي والتي كانت تجاهر بالعقيدة المعتزلية حتى ذلك الوقت (ليفيتسكي تاديوس، 2000: 61)، والمقصود بهم بلدة أغرم نلتزضيت ضواحي بلدة العطف اليوم، واستقر مع تلاميذه في تين يسلي وفي غار التسعي شرع الشيخ في وضع نظام الحلقة سنة 409هـ/1018م (جهلان عدون، د.ت: 169).

وكان الإباضية قبل ذلك أي طيلة القرن الرابع الهجري/العاشر للميلاد، يقيمون الحلقات العلمية ويجهدون في خلق نظام دقيق يحافظ على استمرار المذهب في مرحلة الكتمان... واستمر الوضع على هذه الحال إلى بداية القرن 5هـ/11م (مزهودي مسعود، 2010: 394)، إذن يمكن القول بأن رحلته التعلّمية الدراسية قد امتدت من فرسطاء إلى جربة، فالحامة ومنها إلى القيروان ونفزاوة، أما رحلته التعليمية الدعوية فجالت مختلف أراضى إفريقية أي المغربين الأدنى والأوسط، شعورا منه

بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه من أجل الحفاظ على سيرورة واستمرارية المذهب الإباضي، وتبليغ الأمانة التي تحمّلها إلى الأجيال من بعده، وكان له أسلوب في الإصلاح مميز، فمن خلال رحلاته وأسفاره، كان التلاميذ معه يتعرضون للشدائد والحن، ويبلون البلاء الحسن، فيقوم الشيخ بانتقاء من يصلح منهم للقيادة الدينية، ومنهم من يخصص للتعليم، ومنهم من لا يصلح إلا لنفسه.

5. ما شهد له العامة والخاصة:

قال عنه أبو عبد الله بن مانوج: ﴿عجبا لهذا النفوسي وأصحابه كمثل الحوارين لعيسى عليه السلام﴾ (الورجلاني، 1981: 259/1)، و كان من أكثر الناس علما وورعا، وكان موهوبا بالحكمة والرشد وحصافة الرأي وسداد التفكير وحسن التقدير (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 123)، كان ألعيا حاد الذكاء، يفهم الخاطرة، ويدرك اللمحة العابرة، ويفسر الحركة، ويصل إلى ما يختلج في أعماق النفوس من محدثيه (معمر علي يحيى، 2008: 130)، وكان رقيقا حلينا عطوفا محبا للخير، ومع ذلك كان قوي الشخصية مهابا وكان لا يسكت عن منكر يراه، وإن كان يعالجه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد يشتد فيصرّح للمخطئ بخطئه في مجمع من الناس إذا خاف أن تصل الأضرار إلى الجماعة حتى يحترس منه الناس. وقد وصفه محمد بن أبي صالح النفوسي بقوله: ﴿فيه خمس خصال قليلة في غيره من أهل العصر: عالم، ورع، عابد، سخي، شجاع، من ذروة نفوسة﴾ (الورجلاني، 1981: 260/1).

وكان رحمه الله جمّ التواضع كثير الاهتمام بأمور الطلبة (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 18-25). وذكر عن رجل من بني وليل يقال له: بياضة بن سودرا ويكنى بأبي تملي أنه قال: ﴿لو أنصت أهل الدعوة واستمعوا لجميع ما يقوله هذا الشيخ لأن كلامه كله حكمة إما عن الدين وإما عن الدنيا، لأنه حكيم زمانه﴾ (الورجلاني، 1981: 334/2)، وهو الطود الذي تضاءلت دونه الأطواد، والبحر الذي لا تقاس به الثماد (الدرجيني، 2007: 197/2)، وهو عند الإباضية إمام عصره وإليه المرجع عند المدلهمات (بابا حمو إبراهيم، 2003: 309)، وهو الطود الأشم ملاذ العلماء وواسطة عقد النبغ، فكان إماما من غير إمامة، ساس الناس بعلمه، أثر فيهم بإيمانه واستجلب معونة الله بإخلاصه وورعه، يرى فيه الإباضية موهبة الداعية واعتبروه العنصر الأكثر نشاطا في نشر الإباضية وإشاعتها في شمال الصحراء (قشار بلحاج، 1989: 56).

شهد له أساتذته بالجد والنباهة فهو حيثئذ كفاء ليتحمل المسؤوليات (الجعبري فرحات، 1975: 33)، وهو الفيلسوف الاجتماعي والمصلح الكبير الذي لا يعرف السأم أو التعب. كان من أحرص الناس على الاتحاد والتضامن والتعاون، وكان أكره ما يكره الفرقة والشقاق، وكان يمقت الأشخاص الذين يسعون إلى الخلاف أو يتسبون فيه (ممعر علي يحيى، 2008: 133). هذا غيظ من فيض الصفات والسجايا والفضائل والمناقب التي يتمتع بها الشيخ أبو عبد الله والتي وصفه بها المتقدمون والمتأخرون.

6. لولا المشايخ لما كان التلميذ:

تلقى الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر العلم في فرسطاء -مسقط رأسه- على يد أبيه ومشايخ القرية، لكن المصادر لم تذكرهم بأسمائهم، وفي جربة على يد مشايخ أجلاء، أخذ عنهم فنون الشريعة الإسلامية من تفسير وحديث. وأصول دين وفقه، منهم: سليمان بن ماطوس الشروسي، أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور، أبو صالح، أبو محمد كاموس الزواغي، أبو عمرو النميلي، أبو موسى عيسى بن السمح (الجبيري، 2010: 138).

وفي الحامة بقسطيلية (بلاد الجريد) درس علم الكلام على يد: أبي القاسم الحامي، وأبي نوح سعيد بن زنغيل، ثم توجه صوب القيروان لدراسة علم اللسان (النحو والصرف والبلاغة والإعراب) على يد ثلة من علماء الإباضية لم تذكر المصادر أسماءهم، سوى منصور بن عبد الغني الوسلاتي المزاتي، وإن كانت تشير إلى أن المدينة كانت ذات حركة علمية نشطة (الجبيري، 2010: 139)، وفي قسطيلية من المحتمل أنه جلس إلى الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء.

7. لولا الشيخ لما كان التلاميذ:

لا يمكن حصر قائمة تلاميذ الشيخ أبي عبد الله الفرسطائي، فله في كل قرية ومدينة حلقة علم أي عدد كبير منهم، والذين يبلغون المئات من جميع الجهات على حد تعبير علي يحيى معمر (معمر علي يحيى، 2008: 129)، ويبدو أنه كان يلقي دروسه باللغتين العربية والبربرية، فقد

اختلفت ألسنة طلبته الذين قدموا إليه من كل الجهات، وهؤلاء أشهرهم المذكورون في كتب السير الإباضية والذين تركوا تأليف في شتى الفنون، وسيرة حياتهم تناولتها المراجع المختلفة منهم: أبناؤه الثلاثة: أبو العباس أحمد وأبو يعقوب يوسف وإبراهيم، وزكرياء بن أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين اليهراسني، وأخوه يونس بن أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور، وأبو بكر بن يحيى، وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وأبو الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون المزاتي، وإبراهيم بن مناد، وبابا السعد، وأبو عبد الله محمد بن الخير بن أحمد، ويعقوب بن يعدل، ومصالة بن يحيى (مجموعة مؤلفين، 1999: 772)، وغيرهم كثيرون.

8. تلك آثارهم تدل عليهم:

إذا لم يكن للإمام أبي عبد الله محمد بن بكر من أثر في حياته إلا تدوين نظام حلقة العزابة الجاري إلى اليوم لكفاه فخرا، وأعظم أثرا يجعله حيا دائما يرزق، وما عند الله خير وأبقى (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 59). النظام الذي مازالت أقلام المؤرخين، وعلماء السياسة والنفوس والاجتماع، والاقتصاد يبحثون في خباياه، ومنهجه الذي استطاع أن يكون أنموذجا متكاملا لحياة الناس، مستمدا من القرآن والسنة الشريفة، وهو نظام يدير شؤون المجتمع: الدينية والأخلاقية، والثقافية، والاقتصادية والسياسية (أسماوي صالح، 1987: 25).

فبعد الحوادث الموجهة التي تعرض لها الإباضية خلال تاريخهم الطويل منها: وقعة مانو سنة 283هـ/896م، والتي كانت حصيلتها 12 ألف قتيل من الإباضية، منهم 400 عالم وفقه (الورجلاني، 1981: 1/153)، ثم سقوط الدولة الرستمية سنة 296هـ/909م، وفرار العلماء والمشايع من نيهرت، وحرق الشيعة لكتب المذهب الفقهية، ثم معركة باغاي التي انهزم فيها الإباضية أمام جيوش الفاطميين في سنة 358هـ/968م، وأخيرا تخريب قلعة درجين سنة 440هـ/1048م، وفرار العلماء إلى آجلو.

هذه الأحداث وغيرها، جعلت المشايخ يفكرون في مسلك آخر، يهدف إلى حماية كيان المذهب، بعيداً عن السياسة ودواليها. فكان الشيخ أبو عبد الله من الأوائل الذين فكروا وجسدوا الفكرة عمليا، فكان ولادة نظام الحلقة، ويعود فضل المبادرة إلى وفد من طلبة جربة، وهم أبناء شيخه أبي زكرياء فصيل وهما: زكرياء ويونس، وابن أخته أبو بكر بن يحيى، ومن معهم، طالبين منه أن يعقد لهم حلقة علم، وهي وصية أبيهم الشيخ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني، وبعد رفض تام منه وإلحاح منهم، اشترط عليهم مهلة أربعة أشهر، يتفرغ فيها لترتيب نظام محكم ودقيق، وقد ساعده في التنظير والتخطيط شيخه أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور، لذلك عُرف النظام باسم: ﴿السيرة المسورية البكرية﴾. كانت تلبية طلبهم في تينيسلي بالغار، ويدعى بالتسعي نسبة إلى سنة تأسيس النظام وهي سنة 409هـ/1018م. (مجموعة مؤلفين،

1999: 773-774/4) إذن هي إرهابات تأسيس نظام الحلقة، ثم يأخذ بعد ذلك أشكالاً من التطور والتغيير. والحديث يطول في ذكر تفاصيل النظام وتقسيماته، وقد أطنبت المصادر في ذكر تفاصيل تأسيسه، كما أنجزت حوله مذكرات وأطاريح، داخل الوطن وخارجه، وعقدت له ملتقيات ومؤتمرات.

يقول عنه الدرجيني: ﴿له في كل فن تكليف كثيرة، أكثرها في الحجج والبراهين، لأنه كان فيها ركناً من الأركان، وله في الأخلاق حكم وأقوال﴾ (الدرجيني، 2007: 197/2)، لم تذكر عناوينها، ربما تعرضت للحرق والتخريب، فحالتها مثل حال مكتبة تيهرت ومكتبي جادو وشروس من مدن نفوسة، إذ النار التي أضرمها في كتبهم المتغلبون هي التي أكلت كل مفيد منها في مختلف الفنون والعلوم، التي ولا بد وأن لهم مؤلفات عديدة فيها (الباروني سليمان، د.ت: 50)، وصفه ليفيتسكي بأنه راوي لبعض الروايات المتعلقة بشيوخ الإباضيين من إفريقيا الشمالية المذكورة في المجموعة الغفل المسماة سير المشايخ، ويضيف: أن أبا عبد الله كان مؤلف أعمال متعلقة بعلوم عدة (ليفيتسكي تاديوس، 2000: 61)، ويقول الدكتور عمر لقمان: ﴿وله في الميدان العلمي الآثار الكثيرة، وقد ألّف في الحجج والبراهين وفي الأخلاق ولكن لم يصل إلينا شيء منها، بل لم تذكر كتب السير جميعها عناوين كتبه﴾ (سليمان بوعصبانة عمر، 2013: 119).

والناظر في التراث الإباضي من كتب السير والفقه والعقيدة، يجدها تعجّ بآرائه وأحكامه، ومن ثم يتضح لنا أن أبا عبد الله لم يؤلف كتباً لغرض التأليف، وإنما قام تلاميذه بجمع فتاويه وحكمه، وأخذها عنهم المؤلفون لتعرف فيما بعد بتأليف أبي عبد الله، وأشمل كتاب يحمل آراء الشيخ وعلمه هو: ﴿كتاب التحف المخزونة﴾ لتلميذه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي في جزأين. أما في الميدان فقد بنى مسجد فرسطاء بالجبل والذي لازالت آثاره باقية إلى اليوم، واستطاع إسكات فتنة الفرقة السكاكية، كما قام بإصلاح قبيلة بني ورزمار، إجمالاً يمكن القول بأنه كان كغيره من المشايخ يجلسون إلى طلبتهم في حلق العلم والطلبة يدونون ما يسمعون، وقد ظهر له مؤخرًا مخطوط كتاب الألواح، إذ قام بعض الباحثين من تونس بتحقيقه، وقد تظهر مستقبلاً مؤلفات له كانت منسوبة لغيره.

9. أقول نجم أبي عبد الله:

توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي سنة 440هـ/1048م بتينسلي أو آجلو، والتي كانت تعرف بمدينة الصالحين (معمري يحيى، 2008: 138)، وهي بلدة عمر حالياً، وقد حضر بجانبه عند احتضاره ابنه أبو يعقوب يوسف أما ابنه أبو العباس أحمد فقد كان غائباً يتلقى العلم في مدرسة أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 35)، إلى جانب تلميذه عبد السلام بن منظور (الجعيري فرحات، 1975: 46)، فهو عند الشيخ سالم بن

يعقوب على ما حققه يكون عمره 95 سنة رحمه الله ورضي عنه (حمدي أبو اليقظان إبراهيم، 1986: 15)، ودفن بها وقبره اليوم بها قبالة الغار، في ربوة تأتي على يسار الذهاب في الطريق المعبد من تقرت إلى وارجلان على رأس نحو 20 كلم، ثم ينحرف عن الطريق يسارا في أرض رطبة بنحو 3 كلم، وهناك تبدو روضته جاثمة في رأس الربوة كاللبوة، وحذو الروضة روضة ابنه أبي العباس أحمد.....ويدعي السكان أن الروضة هي للشيخ أحمد السائح، وهم إما يعنون الشيخ أبا عبد الله محمد بن بكر ويعنون بالسائح لكثرة سياحته، وإما أنه عبد صالح آخر غلطوا في روضته، وهم يدعون أنه جد لهم، أي جد أولاد السائح سكان الجهات المعنية (أنظر التعليق رقم 09).

وقال عبد الرحمن بن عمر ﴿ جعلت علامته شجرة يقال لها: العنظوان ﴾ وهي بالبربرية ﴿ تاعقايت ﴾، وله مقام ببلدة تاجنيت (العطف) بناه سنة 422هـ/1030م (سليمان بوعصبانة عمر، 2013: 119).

الخاتمة:

كما سبق يمكن الوصول إلى أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي الإباضي كان وحيد زمانه، فلم يبلغ أقرانه ومعاصروه درجة العلم التي بلغها، وهو علامة القرن 5هـ/11م، فعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: ﴿ يبعث الله على

رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» (رواه أبو داود في السنن والملاحم، باب ما يذكر في القرن المائة، رقم: 4، 104/3740).

لم تمنعه البيئة التي عاش فيها، والظروف الاجتماعية من مزاوله التعليم في مختلف مراحلها، ولم يكتف بالجلوس إلى مشايخ قريته، بل أثر الرحلة لطلب العلم والاستزادة منه، في مختلف القرى والأمصار على مشايخ عديدين شهدوا له بالنبوغ والفطنة والذكاء، وتوسموا فيه، القيادة والمسؤولية لما اتصف به من صفات خلقية وأخلاقية وعلمية، أهله لأن يحمل مشعل نشر العلم والمذهب معا، خلفا لمشايخه.

بالإضافة إلى آثاره العلمية التي تركها، المعلومة منها والمفقودة والمجهولة، إلا أن أهم منجز يحسب له، هو تأسيسه لنظام العزابة سنة 440هـ، ذلك النظام الذي كُتب له البقاء، وما يزال أثره باقيا إلى يوم الناس هذا في وادي مزاب بالجزائر، وإن كان قد اندثر من جربة ونفوسة وعمان وغيرها، لأسباب عديدة سياسية واجتماعية بالدرجة الأولى. فقد عمل الشيخ ومن معه على استحداث نظام أو منهج يكفل للإباضية المحافظة على بقائهم وبقاء مذهبهم، وإن تداولت عليهم الأمم والدول والملوك، بمختلف سياساتهم الترهيبية والترغيبية، والتاريخ يشهد على صموده رغم ما تعرض له من دسائس ومحاولات يائسة لطمسه والعمل على ذوبانه.

وحياة الشيخ أبي عبد الله لازالت يكتنفها الغموض، في الكثير من جوانبها، لذا ندعو الباحثين والدارسين على مستوى الجامعات

ومراكز البحث للاهتمام به، بترجمة حياته ومعرفة مراحلها، والوقوف على مؤلفاته، ودراسة دقيقة لنظامه، خاصة من منظور تربوي وفكري، واجتماعي وحضاري، للوصول إلى ما خفي من سيرته، وخبايا منهج الغزابة وآثاره، وسرّ بقاءه.

التعليقات:

1-فرسطاء: من أشهر قرى جبل نفوسة المنيع الواقع شمال غرب ليبيا، تقع إلى الغرب منه، وهي بلدة ناتئة في أعلى الجبل مطلة على الوادي تقابلها من الجهة الأخرى قرية تموشايت التي كانت تنافسها في العلم إلى جانب قرية شروّس، عاش فيها وتلمذ بها وعلم بها مشاهير علماء الإباضية من أمثال: أبي العباس أحمد بن محمد الفرسطائي، وأبو يحيى زكرياء بن أبي القاسم الفرسطائي وأبو طاهر إسماعيل الجيطالي. علي يحيى معمر: المرجع السابق، الإباضية في ليبيا، ص178.

2-أريغ: نسبة إلى قبيلة بني ريغة المنحدرة من بطن مغراوة، ونزل بنو ريغة ما بين قصور الزاب وورجلان. وكانت أريغ محطة من محطات القوافل التجارية المتوجهة صوب بلاد السودان، ابن خلدون: تاريخ، 7/ 64؛

3-هذا الأخير ﴿ قُتِلَ من طرف المعتزلة عند دعوة الشيخ أبي عبد الله لبني مزاب إلى مذهب الإباضية، فاستجابتهم لم تكن بالأمر السهل، كما أنها لم تكن جماعية وفورية، فقد ظل عدد كبير منهم على اعتزاله زمناً ﴾ انظر: يوسف الحاج سعيد: تاريخ الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي من ق2-7هـ المطبعة العربية، غرداية، ط1، 2016، ص124 ويورد لذلك أدلة في نفس الصفحة.

4-الحامة: ومن بلاد قسطنطينية مدينة الحامة، وتعرف اليوم بحامة بني بهلول(حمة البهاليل)، وبني بهلول من سادات قسطنطينية بل هم أغنى من فيها، وهم من بقايا الروم، وسميت كذلك لسخانة مائها، فالحمة في اللغة هي العين التي بمائها سخانة،

واشتهر اثنين من منتسبي الاباضية إليها وهم: أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يغلا بن زلتاف. مجهول الاستبصار، ص157؛ أبو محمد عبد الله التيجاني: رحلة التيجاني، ص134-135؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، المرجع السابق، ص126. 5- لعل منهم الشيخ منصور بن عبد الغني الوسلاتي المزاتي. اسماوي: مرجع سابق، ص23.

6- تقيوس : حملت اسم كنومة أو قنطارة: اسمها اليوم هو: قرية الوديان وهي من قرى مدينة دقاش بالجنوب التونسي، مدينة بإفريقية قريبة من توزر، أهلها قوم عجم من الروم القدم والأفارقة والبربر هي أكثر بلاد الجريد زيتونا، وقد كانت على مذهب النكارية، ومنها انطلق أبو يزيد النكاري في حملته ضد الفاطميين الشيعة، من مشايخ الاباضية فيها: يوسف بن سجميمان، كما أن نظام العزابة قد تأسس أول أمره بمسجد المنية بتقيوس سنة 408هـ/1017م. مجهول الاستبصار: 156، الحموي: معجم البلدان، 37/2؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، المرجع السابق، ص205.

7- قسطلية أو قسطالية: اعتبرها اليعقوبي بلاد الجريد كله الواقع جنوب المغرب الأدنى، كما أن بعض الجغرافيين اعتبروا قسطلية هي نفسها توزر منهم: الإدريسي والحميري، وهي أربع مدائن في أرض واسعة لها النخل والزيتون وهي: توزر قاعدتها أو أمها، والحامة وتقيوس ونفطة وحول هذه المدن أربع سبائح وأهلها من عجم الروم والأفارقة والبربر. اليعقوبي: البلدان، ص188. البكري: المسالك والممالك، 708/2؛ مجهول: الاستبصار، ص155-157. الإدريسي: نزعة المشتاق، ص276-277؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، ص6-7.

8- تينيسلي أو تين يسلي: اسم مرادف لآجلو، وتحمل اسم تين باماطوس أيضا، وهي بلدة اعمر اليوم الواقعة جنوب تقرت بجوالي 25كلم، كانت عاصمة ثقافية

كبيرة للإباضية، ولها فضل كبير على ورجلان وبادية مزاب، إذ هي منشأ نظام العزابة على يد نزيلها الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرستائي سنة 409هـ/1018م. الوسياني: السير، 1/ 71.

9- ولكن التحقيق أكد أنها للشيخين أبي عبد الله وابنه أبي العباس كما يشهد لنا بذلك التاريخ وقدماء تجارنا بتقوت. أبو اليقظان: نفسه، ص 69. وله عائلة من ذريته في تقوت تسمى بعائلة أولاد السائح كانوا إباضية فصاروا مالكية، مجهول: كتاب المعلقة في أخبار وروايات أهل الدعوة، تح الحاج سليمان بن إبراهيم بابيز الوارجلاني، ط 1، وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2009، هامش ص 59، الجعيري: نفسه، ص 46.

قائمة المراجع:

- أسماوي صالح، (1987)، نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي مزاب، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، الجزائر.
- أبو الربيع سليمان بن حسان الوسياني، (2009)، سير الوسياني، ط 1، مسقط، عُمان: وزارة التراث والثقافة.
- أبو العباس أحمد الدرجيني، (2007)، طبقات المشايخ بالمغرب، ط 2، غرداية: دار العلم.
- أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد الشماخي، (2009)، كتاب السير، ط 1، تونس: دار المدار الإسلامي.

- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني، (1981)، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، تونس: الدار التونسية للنشر.
- بابا حمو إبراهيم أعزام ، (2003)، غصن البان في تاريخ وارجلان، دراسة وتحقيق إبراهيم بحاز وسليمان بومعقل، ط1، غرداية: المطبعة العالمية.
- الباروني سليمان، (د.ت)، مختصر تاريخ الإباضية، د.م: د.ن.
- الجعيري فرحات، (2010)، شخصيات إباضية، ط1، السيب: مكتبة الضامري.
- الجعيري فرحات، (1975)، نظام العزابة عند الإباضية الوهية في جربة، تونس: المعهد القومي للآثار والفنون.
- جهلان عدون، (د.ت)، الفكر السياسي عند الإباضية، ط1، القرارة: جمعية التراث.
- حمدي أبو اليقظان إبراهيم ، (1986)، الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي، القرارة: (د.د.ن)
- سليمان بوعصبانة عمر لقمان، (2013)، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان-من سقوط الدولة الرستمية 296هـ إلى خراب سدراة 626هـ-، ط2، غرداية: دار نزهة الألباب.
- قشار بلحاج، (1989)، اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية، ط1، غرداية: المطبعة العربية.

- علي يحيى معمر، (2008)، الإباضية في موكب التاريخ، مراجعة إبراهيم بابزيز، ط3، عمان: مكتبة الضامري.
- كوردي محمود حسين ، (2008)، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السودان الغربي(2-8هـ)، و.م.أ: مؤسسة تاوالت الثقافية.
- ليفيتسكي تاديوس، (2000)، المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة ماهر وربما جرار، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- مجموعة مؤلفين، (1999)، معجم أعلام الإباضية -قسم المغرب-، ط1، غرداية: المطبعة العربية.
- مزهودي مسعود،(2010)، جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ)(642-1053م)، ط1، السيب: مكتبة الضامري.